الكتاب الى اخره ، ولو تحديدا واحدا « لمعاداة السامية » . ومن جهة ثانية ينطلق من فرضية غريبة مؤداها ان هناك عداء للسامية غير واضح وغير معلن وان هدفه في هذا الكتاب هو بالضبط كشف هذا العداء وتوضيحه واستخراج مبادئه وأسسه ، اي بكلمة اخرى السعي الى صياغة القواعد الفكرية والعقائدية والبحث عن الجذور التاريخية لما يسميه المؤلف بالمعاداة اليسارية للسامية . أما كيف استطاع ر. مزراحي ان يصل الى غايته ، اي ان يوهمنا بانه « اكتشف » الجذور الفكرية والتاريخية للعداء اليساري للسامية ، فعن طريق التركيز على كتيب صغير كتبه ماركس في شبابه عن المسألة اليهودية وهو كتيب يتعرض فيه ماركس للقضية اليهودية بشكل عابر دون اية دراسة تحليلية اجتماعية او خلفية تاريخية دون ان يؤثر هذا النقص ، على كل حال، على صحة المقولات التي ساقها في هذا المجال . من هذا الكتيب ينطلق المؤلف ليبني نظرية متكاملة تعتمد على المنطق ( الشكلي طبعا ) ، وتهدف الى وضع ماركس في قفص المتهمين بالعداء اليساري للسامية ( من المفيد هنا ان نذكر ان ماركس هو يهودي الاصل لندرك كيف ان المضمون الحقيقي لهذه التهمة يتعدى الفكر اليميني الرجعي العنصري ليرتبط بكل مفكر يعادي الصهيونية والدولة الاسرائيلية ) . ولكن قبل ان نذهب بعيدا في تقييماتنا لا بد من عرض سريع لاهم محتويات هذا الكتاب .

هناك فكرتان اساسيتان يدور الكتاب حولهما :

١ ـ الفكرة الاولى هي اتهام اليسار ( كل اليسار ) بالعداء للسامية لانه « يريد من اليهودي أن يكون « انسانا » كبقية الناس ، لا فرق بينه وبينهم ... اي ان يكون شريكا غير مميز فيصبح رجل اعمال كبقية رجال الاعمال ، وموظفا كبقية الموظفين ، ومثقفا كبقية المثقفين ... » (ص ١١). هكذا اذن اصبحت ارادة المجتمع الغربي في رؤية اليهودي يندمج في كل نشاطاته ويخضع لكل متطلباته معاداة للسامية بعد ان كانت هذه الاخيرة تنحصر في رفض الاعتراف والقبول باليهود في مجتمعهم . ولو كان الامر مجرد احتفاظ اليهود بخصوصيتهم وفرديتهم وطابعهم الخاص لهان الامر ولربما كان العقل المتسامح مستعدا لتقبله . الا ان المدهش والغريب فعلا في المسألة هو ان الكاتب يعتبر الاحزاب اليسارية معادية للسامية لانها تفرض على المناضلين اليهود ان يتخلوا عن يهوديتهم ولا تسمح لهم بالانضمام الى صفوفها الا بعد ان يعلنوا حربا شعواء على الصهيونية ! وهكذا يتضح شيئا فشيئا الهدف الاساسي من هذه الدراسة : الخلط المتعمد بين اليهود واسرائيل وبين اليهود والصهيونية وكل ذلك من اجل الدفاع عن الصهيونية ، وعن الصهيونية وحدها ، باعتبارها في نظر الكاتب ، الحل الوحيد المقبول لما يسمى بالمسألة اليهودية . لا بل ان الدفاع عن الصهيونية وعن اسرائيل يصبح اهم من الدفاع عن اليهود ، خاصة وان تهمة معاداة السامية تلصق كذلك بالكثيرين من اليهود التقدميين ( كاسحق دويتشر مثلا ) وكذلك باليسار العربي وبشكل اخص يسار المقاومة . ( يتهم مزراحي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالعداء للسامية لان « القراصنة » احتجزوا ركاب الطائرات المخطوفة من اليهود لانهم يهود وليس لانهم اسرائيليون على حد زعم الكاتب . الا انه يتجاهل، في عملية تضليلية لا مثيل لها ، ان هؤلاء اليهود كانوا يحملون الجنسية الاسرائيلية كذلك ) وكلنا يتذكر الجدال الحامي الذي دار في فرنسا حول ازدواجية الولاء عند اليهود الفرنسيين . وفي هذا الصدد يحاول مزراحي تبرير هذا الواقع فيدعي بأن اليسار لم يفهم الفرق بين ازدواجية الجنسية وازدواجية الولاء ، اذ انه يتهم اليهود الموالين جدا لاسرائيل بالانتماء الى غير وطنهم « في حين أن هذا اليسار لا يفكر ابدا باتهام التونسيين او اللبنانيين مثلا بخيانة ولائهم لاوطانهم لانهم يتعاطفون مع الفلسطينيين » . لا شك ان المنطق الشكلي كما تعلمنا اياه المدرسة السفسطائية يتسم بقدرة فائقة على تجاوز الواقع وتشويهه وفرض استنتاجات لا علاقة لها بالمعطيات الاساسية والمقدمات المفترضة . الا اننا لم نكن نظن ان لهذا المنطق كذلك مثل هذه القدرة على التضليل والتشويه دون احترام حتى الشكل . فالمنطق الذي يقدمه لنا مزراحي هنا لا يحترم حتى قواعد المنطق الشكلي واصوله . انه بكلمة واحدة : لا منطق اذ اين وجه الشبه بين يهودي فرنسي يعطي كل ولائه لاسرائيل وبين عربي تونسي او لبناني يتعاطف مع الفلسطينيين؟ ان العرب في كل اقطارهم لا يعترفون بالتجزئة الحالية ويعلنون دائما تمسكهم بالوحدة ومن هنا فان ولاءهم لقوميتهم العربية يأتي قبل ولائهم للكيانات المصطنعة دون أن يطرح هذا